انتفاضة القوات الخاصة
(الإصلاحات الأولى)

حال ما وصل بطرس الأكبر إلى العاصمة في ٢٥ آب (أغسطس) بشكل متخف تقريبًا، بدون استقبالات واحتفالات، اطلع على تفاصيل الأحداث التي شغلت باله في الخارج أكثر من أي شيء آخر، ونعني انتفاضة القوات الخاصة (الستريلتسي)، استمع إلى كل ما حدَّثوه وبلَّغوه به، وقرأ مواد التحريات والتحقيق ـ إفادات المشاركين في الانتفاضة، والتي انتزعت منهم فورد حرها قرب أسوار دير فوسكريسينسكي، واستمر الاطلاع على مواد القضية حوالي ثلاثة أسابيع، ومارس بطرس شؤونًا أخرى إلى جانبها.

ما أن عاد القيصر إلى موسكو حتى قام بزيارة إلى باتريك غوردون، ثم جاء إلى آنا مونس، محبوبته في حي العجم، ويبدو أنه اشتاق إليها، وبعد ذلك توجه إلى بريوبراجينسكويه دون أن يعرج على زوجته، فما كان يريد أن يراها.

انتعشت الحياة السياسة في العاصمة بمجيء القيصر الشَّاب النشيط، وانتقل مركز ثقلها إلى هذه القرية في ضواحي موسكو، أخذ البويار يتقاطرون إلى هنا، فما رأوه في اللقاء الأول مع القيصر أدهشهم هم ومعاصريهم، حتى ظلوا سنين طويلة يحدثون أبناءهم وأحفادهم عما حدث في ذلك اليوم المشهود، استقبل بطرس البويار، وأمر بأن يجلبوا له مقصًا استخدمه في الحال، وتناثرت على الأرضية اللحى التي حلقها القيصر، وتعرض لهذه العملية أكثر الرجال نفوذًا ـ آنذاك ـ القائد العام شين، والأمير الحاكم رومودانوفسكي، وغيرهما ممن صعقوا وذهلوا لهذا التصرف، لكنهم اضطروا إلى الإذعان، لا سيما وأن القيصر لم يكتف بذلك، بل ظل يواصل حلق اللحى بإصرار، وبعد أيام في مأدبة عند شين الذي لم يعد ملتحيًا، استمر مهرج القيصر بحلق لحى الحاضرين ممن كانت هذه الحلبة الرُوسية القديمة تزين وجوههم، بهذه الصورة الحازمة الاستبدادية الفظة أخذ بطرس، على طريقته المعتادة، يصفي مخلفات الماضي في الحياة المعيشية، صحيح أن بعض الشُجعان حلقوا لحاهم قبله،

لكنهم تعرضوا لوابل من السخرية من جانب الآخرين، وللعنات من جانب القساوسة، وكان البطريرك أدريان يُسلّط اللعنات في مواعظه على ذوي الذقون الحليقة، واعتبر فعلهم خطيئة لا تغتفر، وشبههم بالقطط والكلاب والقردة.

ولم يعبأ بطرس بتذمر البويار ورجال الدِّين فأعلن في مراسيمه أن جميع رعاياه يجب أن يحلقوا لحاهم، وفارق الوجهاء لحاهم بسرعة وسهولة نسبيًا، أما عامة الناس فقد ردوا على ذلك بتذمر خافت ومقاومة، وعند ذاك فرضت السُلطات ضريبة على الملتحين: ١٠٠ روبل سنويًا على التُجار الأثرياء (وهذا مبلغ هائل في مقاييس ذاك الزمان)، و٦٠ روبلاً على النبلاء والموظفين، و٣٠ روبلاً على أهالي المدن، وكوبيك واحد على الفلاحين كلما دخلوا المدينة أو خرجوا منها، ولم يعف من الضريبة الجديدة دخلوا المدينة أو خرجوا منها، ولم يعف من الضريبة الجديدة سوى رجال الدِّين، وبالنتيجة كسبت الخزينة، وتضرر المصرُون على الالتحاء، وبينهم كثير ممن قابلوا مستجدات بطرس، وتصرفاته باستنكار وغضب، ونادوا بالإبقاء على تقاليد، وعادات الأجداد.

وفي الوقت ذاته انكب القيصر على حل مهمة اقضت مضجعه، وكان يريد حلها قبل الرحيل إلى الخارج، ونعني طلاق زوجته، فعندما توجه إلى ريغا طلب من الحكام الذين ظلوا في موسكو أن يقنعوا يفدوكيا بأن تلتحق بالدِّير حسب قراره، لكن زوجته لم توافق على ذلك مع علمها بأنه لا يحبها، واستحث الزوج عندما كان في الخارج ستريشنيف وروموداونوسكي وأعرب عن استيائه من التباطؤ في هذه المسألة.

... وفي اليوم التالي، بعد العودة من الخارج قابل بطرس زوجته، واستمر الحديث بينهما أربع ساعات، وكان على ما يبدو صعبًا على الطرفين، ولا أحد يعلم بما تناوله الحديث، لكن جوهره هو ذاته القطيعة، وانزواء يفدوكيا كراهبة في الدِّير، وكان المرتأي أن يجري توديعها ـ إذا وافقت ـ من موسكو إلى الدِّير بتكريم مهيب، وطالما رفضت جرى كل شيء

ببساطة دون فخفخة، بعد ثلاثة أسابيع غادرت الكريملين عربة صغيرة، هي عربة عقيلة القيصر، بدون حاشية، وسرعان ما استقبلت حجرات دير بوكروفسكي (الغطاء) في سوزدال راهبة جديدة باسم يلينا.

وكان بطرس طوال هذه الأيام يمارس أعماله أو يحضر المآدب، ويمعن الفكر في ملابسات انتفاضة أفراد القوات الخاصة الذين لا يعتبرهم محاربين بل مشاغبين، كان في محاججاته السابقة والحالية على خطأ في نقاط كثيرة، فقد عتم عليه، وعكر صفو ذهنه حقده الشَّديد القديم عليهم، وعلى صوفيا، وعلى آل ميلوسلافسكي، وقد جمعهم القيصر مجازًا في حضيرة واحدة، فهم جميعًا ـ في تصوراته الخاطئة ـ يشَّكلون معسكرًا واحدًا هو معسكر خصومه، ومناوئي التحويلات والتجديدات التي ينوي القيام بها، وبدأ بتطبيقها، ولم يكن، مع الأسف، يعير اهتمامًا لأحول أفراد القوات الخاصة الفعلية، ولآلامهم وحرمانهم، في حين أن تلك الآلام والحرمان هي سبب الانتفاضة، زد على ذلك أن أفراد تلك القوات اثبتوا جدارتهم الحربية مرارًا منذ أن ظهروا في قوام العسَاكر الرُوسية.

بعد الاستيلاء على آزوف أمر بطرس والسُلطات الحاكمة بإعادة تسعة أفواج من القوات الخاصة إلى موسكو، ولكنهم تركوا لأجل تطهير المدينة، وإنشاء التحصينات أربعة أفواج من القوات الخاصة الموسكوبية فقط، وستة أفواج من الجنود، وقاد الأفواج الأربعة المقدمون كولزاكوف وتشيورني وتشوباروف وغوندرتمارك، وأعرب أفراد تلك القوات صراحة عن استيائهم من الخدمة الطويلة، ومصاعب الحملات والخسائر والأمراض، والابتعاد الطويل عن الأهل، وسوء معاملة الرؤساء.

وفي صيف ١٦٩٧، وصل أمر إلى الأفواج الأربعة بترك آزوف، والتوجه إلى الشمال، ولكن ليس إلى موسكو، وإلى الأهل والزوجات والأطفال، بل إلى منطقة فيليكية لوكي، فهنا ينبغي على تلك الأفواج أن تنخرط في جيش رومودانوفسكي المكون من نبلاء نوفغورود وسمولينسك، وبيلسك، وروسلافل، وكذلك جنود وخيالة ثقيلة من سمولينسك، وبعد

خسائر معركة آزوف كانت الأفواج الأربعة تضم حوالي ٢٧٠٠ شخص من ضمنهم ٣٨ آمرا.

ومما آثار تذمر وحقد أفراد القوات الخاصة، أنهم اقتيدوا إلى الحدود اللتوانية بعيدا عن موسكو، رغم الخسائر الكبيرة التي تكبدوها في حصار ودخول آزوف، وفي الطريق إلى الحدود عانوا من حرمان شديد، كانوا يسحبون السُفن النهرية المحمّلة بالسِلاح والذخيرة، وكانوا يجرون المدافع بدلًا من الخيل، والطقس لا أسوأ منه، في البداية عانوا من أوحال الخريف، وبعدها حل الصقيع المبكر، كانوا جياعا (يتسولون في الطريق، ويتوسلون الصدقة في القرى)، يعانون من البرد، ويسيرون إلى مكان الخدمة الجديد، على حد تعبيرهم، «ليل نهار في أشد درجات البؤس والفاقة، في أوحال الخريف، حتى كانت الأرواح تزهق في الأخير».

وبعد الخدمة على الحدود، حيث رابطوا وسط الغابات في الزمهرير والصقيع، نُقلوا إلى فيليكيه لوكي وتوروبيتس، واستمرت الآلام، وكان الجوع أشدها، في تلك السنة أصابت المجاعة جماهير كبيرة في روسيا بأجمعها، وكتب جيليابوجسكي، أحد المعاصرين، في مذكراته أن أفراد القوات الخاصة جاءوا في ربيع ١٦٩٨، إلى موسكو يتشكون «من الجوع»، وتمكنت السُلطات آنذاك من الحيلولة دون اندلاع انتفاضتهم السَافرة، فقد سددت لهم رواتبهم، فغادروا العاصمة بعد بعض القلاقل.

وآنذاك، في آذار (مارس) طرح أكثرهم نشاطًا توما وبروسكوریاكوف، وتشورين، ونعوموف وغيرهم خطة الانتقام من «الظالمين»، من بويار موسكو، والأجانب المتنفذين الذين حرموهم من الرواتب، وتركوهم في بؤس وحرمان.

وعندما تأخرت أخبار بطرس صارت شائعات حول وفاته في الخارج، وفي هذا الوضع الغامض المضطرب عاد أفراد القوات الخاصة إلى الكلام مجددًا عن ضرورة الحاكم الجديد «الطيب القلب» الذي يخفف عليهم

آلامهم، ويزيح البوبار «الأشرار» من أمثال رومودانوفسكي، وستريشنيف، وترويكوروف وغيرهم ممن يظلمون أفراد تلك القوات ويضطهدونهم.

وكتبت الأميرة مارفا في تذكرة إلى أختها صوفيا في دير نوفوديفيتشيه تقول:

- وصلت القوات الخاصة إلى موسكو.

وأجابتها صوفيا (في تذكرة مماثلة مخبأة «في الطعام»):

- ماذا سيفعلون بهم؟

- سيقطعون رقابهم.

- مساكين، أسفي عليهم.

قدم أفراد القوات الخاصة عريضة إلى الأميرتين اشتكوا فيها مما يعانونه من آلام وحرمان، وأعربوا عن رغبتهم في رؤية صوفيا على العرش، ثم جاء جواب صوفيا الذي تلاه توما على الملأ في حي أربات، وكانت هذه الرسالة التي أنكرتها الأميرة صوفيا فيما بعد، عندما استجوبها بطرس، تدعو أفراد القوات الخاصة إلى التوجه إلى موسكو بأفواجهم الأربعة، ليخيموا أمام دير نوفوديفيتشيه، ويطلبوا منها أن «تستلم زمام الدولة»، ويبدو أن أفراد القوات الخاصة كانوا يؤملون، ويعتقدون بأن عودة الأميرة صوفيا إلى السُلطة، وهي حاكمة «طيبة» في تصوراتهم، ستخفف عليهم مصائبهم، ومن المحتمل تمامًا أن يكون ما يسمى برسالة صوفيا وسيلة ابتدعوها ليستنهضوا باقي أفراد القوات الخاصة للانتفاضة.

في البداية عبأت السُلطات قوات كبيرة ضد الفارين الـ ١٧٥ وأنصارهم المحتملين، فقد توزع حوالي ألف جندي على الكريملين وعلى بوابات المدينة البيضاء المحيطة به، وأرسل ٧٥٠ جنديًا وفردًا من القوات الخاصة إلى حارات تلك القوات التي يتواجد فيها الفارون الـ١٧٥، وكان على أهبة الاستعداد جنوب كثيرون آخرون من أفواجهم.

وفي الطريق من موسكو إلى فيليكية لوكي استلم «الفارون» «رسالة صوفيا» الثّانية.

ـ أنتم الآن في حال سيئة، وستكونون فيما بعد في حال أسوأ، توجهوا إلى موسكو، لماذا توقفتهم؟ أخبار القيصر مقطوعة.

وعاد «الفارون» إلى أفواجهم، وبدأت فورًا الاجتماعات، ومناقشات خطط الحملة على موسكو، ووجدت «رسالتا صوفيا» وأخبار الشائعات المنتشرة في موسكو تربة صالحة، ودعا توما، وبروسكورياكوف، وماسلوف وزورين وغيرهم إلى الأفعال الحازمة، وصاح الكثيرون في الاجتماعات، وخصوصًا الشباب:

ـ ما أتعس مصيرنا، نعاني من البويار، ونتسكع بسببهم للعام الثالث.

ـ فلنذهب إلى موسكو.

ـ سنحصل على نقود كثيرة.

ولم يوافق قدامى أفراد القوات الخاصة والقساوسة، وقالوا إن الحملة خطرة، ولا جدوى منها، واستمرت المجادلات والخلافات في الاجتماعات زهاء شهر ونصف.

وفي أواخر آيار (مايو) نقلت الأفواج الأربعة من فيليكية لوكي إلى توروبيتس، وظهر أمل في الحصول على أجازة للذهاب إلى موسكو، ولكن في ٢ حزيران (يونيو) أعلن للقوات الخاصة أن الأفواج الأربعة سترسل إلى مدن مختلفة، وأمرت السلطات بالإضافة إلى تفريق أفراد القوات الخاصة بنفي الذين جاءوا إلى موسكو للشكوى في آذار (مارس)، وإرسالهم «للإقامة الدائمية» مع عوائلهم في مختلف مدن أوكرانيا.

وحاول ميكولين ـ وهو من نبلاء موسكو ـ أن يلقي القبض على «الفارين»، وتخلص بعضهم بالهروات والعصي من الخيالة الذين حاولوا اعتقالهم، بينما تمكن الخيالة من القبض على خمسين أو ستين شخصًا، واقتادهم الضباط القوزاق إلى القلعة، إلا أن جمهورًا من أفراد القوات الخاصة

الآخرين أطلقوا سراحهم في الطريق إلى القلعة، ولاحقوا بالعصي الضباط القوزاق والمقدم كولزاكوف.

واجتمع أفراد القوات الخاصة أمام دار المقدم تشوباروف، وتليت عليهم وثيقة بعثتها السُلطات الموسكوبية، لكنهم لم يصدقوها.

كتبها البويار، أما القيصر فلا أحد يعرف أين هو الآن، ودعا أكثرهم جسارة إلى الانتفاضة.

ـ فلنذهب إلى موسكو.

ـ سنموت في سبيل بعضنا البعض، سنقتل البويار ونبيد الأجانب.

ـ عندما نصل إلى موسكو ستؤيدنا عامة الناس.

وحدث الشيء ذاته أمام دوائر إدارة شؤون القوات الخاصة، وخرج القائد العام رومودانوفسكي مع أفواج النبلاء إلى الحقل المتاخم لطريق موسكو، وطلب بأن يتوجه أفراد القوات الخاصة للخدمة في المدن التي خصصت لهم، وأن يسلموا رفاقهم الفارين، ومضى أفراد القوات الخاصة على مضض، لكنهم لم يسمحوا باعتقال «العصاة».

وفي ٦ حزيران (يونيو) التقت أفواج القوات الخاصة عند نهر دفينا الغربي، وفي الطريق إلى النهر، وعنده، واصل توما وسائر القادة الرئيسيين الدعوة إلى الحملة على موسكو.

وازداد عدد أنصارهم، وتلى ارتيمي ماسلوف ـ وهو من أفراد فوج تشوباروف ـ «رسالة صوفيا» التي زادت الطين بلة، لكنها لم تحظ بموافقة الجميع، وكان من الرافضين كارب يروفييف الذي عبر عن ارتيابه، فردَ عليه فاسيلي توما قائلًا:

ـ لماذا لا تذهب معنا يا أحمق؟ عندي رسالة الأميرة صوفيا، وهي تدعونا للذهاب إلى موسكو.

وأيدت الأغلبية السَاحقة الانتفاضة، ونحى أفراد القوات الخاصة آمريهم، وانتخبوا لكل فوج أربعة مندوبين للقيادة وتسيير الأمور، ولعب

المندوبون دور المنظمين في أفواجهم، أما الزعماء الرئيسيون في الحركة فهم من «الفارين» الـ ١٧٥- توما وبروسكوریاكوف وزورين وماسلوف وإيغناتيف واوبروسيموف وغيرهم، وكان زورين من المشاركين في انتفاضة موسكو عام ١٦٨٢، وقد أعلن صراحة الآن بأنه مستعد لمواصلة القضية التي بدأها هو والآخرون قبل ١٦ عاما.

وقرر أفراد القوات الخاصة أن يتوجهوا إلى موسكو، وحرر زورين عريضة، كما حرر ماسلوف الرسالة التي ينبغي أن تسلم إلى السُلطات، واستعرضا فيهما كل المصائب التي وقعت على كاهل أفراد القوات الخاصة وطالبا بتخفيف تلك المصائب.

ونظم الثوار دوريات الحراسة، وناقشوا خطط التنكيل بالبويار والأجانب واستبدال السُلطة، وظلت الخلافات باقية كالسَابق، فالبعض لم يصدقوا بنجاح الانتفاضة، ودعوا إلى عدم التوجه إلى موسكو «متمردين»، أما البعض الآخر فقد دعوا رفاقهم بجرأة للتوجه إلى موسكو، فإن فوسكوبوينيكوف من فوج تشوباروف لم يخف حقده على حكام موسكو:

- عندما نأتي نقطع أيدي بعض البويار ونسحلهم بالحبال.

وقال رجل آخر اسمه كلوكين: «كلنا نعاني من البويار»، لكن براسولوف اعترض قائلًا: «لا داعي للذهاب إلى هناك، سيعدموننا جميعا»، وكان الاختلاف يهدد الحركة من بدايتها، وقرر المندوبون: من يرفض الذهاب إلى موسكو نغرز رمحًا في دبره.

وكان لإجراءات القادة الحازمة تأثيرها، وتحرك كل أفراد القوات الخاصة صوب موسكو (كان عددهم آنذاك ٢٢٠٠ شخص)، وكان الهدف هو قتل البويار والأجانب الممقوتين، وبالدرجة الأولى الضباط، ونهب مساكن الوجهاء، وتنصيب صوفيا على العرش، أو شخص آخر (إذا رفضت) يعاملهم «بطيبة» من أمثال الأميرات الأخريات، أو الأمير الكسي، أو الأمير فاسيلي غوليتسين (المنفي منذ عام ١٦٨٩)، أو الأمير تشيركاسكي الذي

يتمتع بسمعة جيدة عند العامة، وتدل فكرة رفض صوفيا استسلام السُلطة، وتسليمها إلى أشخاص آخرين دلالة واضحة على أن «رسالتي صوفيا» اللتين تحتويان دعوتها إلى الزَّحف على موسكو، وتنصيبها علي العرش مجرد ابتداعات دعائية من جانب الثوار، وعلى الأصح من جانب زعمائهم توما وبروسكورباكوف وزورين وماسلوف.

وكان الثوار يؤملون في تأييد عامة الناس من موسكو، فالمعاصرون يقولون إن بسطاء الناس مضطربون في تلك الفترة، ومتذمرون من غلاء المعيشة، وخصوصًا الأطعمة، وكان الثُّوار يعولون على معونة من القوات الخاصة في مدن أخرى، ومن قوزاق الدون والجنود.

ومما له دلالته أن فكرة اختمرت بين الثوار، ومفادها الانتقام من القيصر بطرس نفسه، واستبداله بشخص آخر، وتغيير سلالة القياصرة، لكن ذلك ينتظر في حالة نجاح الانتفاضة، وفي الوقت ذاته كان الذين يرفضون الانتفاضة، والذين يؤمنون بها ويدعون إليها يدركون جميعًا أنها يمكن ان تُمنَّى بالفشل، فإن قواهم قليلة وأملهم بمساعدة العامة والجنود والقوزاق والقوات الخاصة الأخرى كان مجرد أمل، (وقد بقى أملًا لا أكثر)، كانوا يتوقعون مثل هذه النهاية، فيخاطبون بعضهم بعضًا لشدِّ العزيمة:

«سنذهب إلى موسكو من كل بد، وإذا عذبونا لن نشي ببعضنا البعض حتى الموت»، وبعد «الاجتماع الكبير» عند نهر دفينا تحركت الأفواج الأربعة صوب موسكو، ومن جديد فتت الخلافات في عضد أفراد القوات الخاصة، وفرقت صفوفهم، سواء البسطاء من المشاركين في الحركة أم قادتها، فعندما وصلوا من الغرب، على مسافة ٢٠ كيلومترًا أو يزيد عن دير فوسكريسينسكي أمر الزعماء بتلاوة «رسالة صوفيا» من جديد، وقرأها ماسلوف على الملأ، وفي هذه الأماكن صادف أفراد القوات الخاصة الشمَّاس قسطنطين سوخاريف، فحكى لهم أنباء موسكو:

ـالبويـار يتوقعـون وصـول القـوات الخاصـة، وقـد أمـروا خدمهـم بخزن احتياطي لستة أسابيع والانسحاب إلى داخل المدينة البيضاء، وإذا بعثوا إليكم من موسكو رسولًا يغريكم بالنقود كيلا تدخلوها، فلا تغريكم النقود، وادخلوا موسكو.

وأثارت كلمات الرجال حماس الثُّوار وخصوصًا المترددين منهم، أما سوخاريف نفسه فقد تكلم بهذه الصورة؛ لأنه ـ كما اعترف فيما بعد ـ كان يأمل في انتصار أفراد القوات الخاصة وينتظر منهم كل النعم والهبات».

أثار نبأ تحرك أفواج القوات الخاصة هرجًا ومرجًا بين البويار الحاكمين في موسكو، اجتمع مجلس الدوما مرارًا، واتخذ قرارًا بإرسال عدة أفواج من النبلاء والجنود وسواهم (جمعوا حتى المتقاعدين، وسائسي الخيل، ومن لم يبلغوا سن التجنيد)، لمقاتلة القوات الخاصة، وبلغ عددهم ـ كما أفاد كورب ـ ٨ آلاف شخص مع ٢٥ مدفعًا، وقاد تلك القوات البويار شين، والجنرال غوردون، والجنرال الملازم الأمير كولتسوف موسالسكي.

وتحرك جند القيصر بمنتهى السرعة، وفي مساء ١٧ حزيران (يونيو) بلغوا دير فوسكريسينسكي في نوفواورشليم، موقع الدَّير بأسواره المتينة العالية، وأبراجه ممتاز، فهو ينتصب على مرتفع يطل على نهر ايسترا، وينبسط أمامه وادٍ فسيح، ووصل أفراد القوات الخاصة أيضًا إلى تلك المنطقة، لكنَّهم لم يتمكنوا من احتلال الدَّير بعد، فقد جعلتهم الخلافات يتباطؤون.

شغلت أفواج ومدفعية الحكومة الربايا القريبة من الدَّير على الضفة اليمنى للنهر، ورابطت القوات الخاصة التي وصلت من جهة الغرب على الضفة اليسرى للنهر، وفي الليل أخذ الجانبان قسطًا من الراحة، وفي ١٨ حزيران بدأت المفاوضات بينهما، حاول غوردون، وكولتسوف موسالسكي وغيرهما أن يقنعوا الثُّوار بوضع السِّلاح، بينما قدم أولئك

العريضة والرسالة إلى شين والبوبار الآخرين، وطلبوا السماح لهم بدخول موسكو ليلتقوا بعوائلهم، وبعد ذلك سيلتحقون بالخدمة كما قالوا ، وعرضوا مطالبهم وشكواهم.

لم ينصت الثُوار إلى حجج الإقناع، وأصروا على مطالبهم، وإذا لم يسمح لهم بدخول موسكو سيشقون طريقهم بقوة السلاح، واتخذ الطرفان مواقع القتال، وتُليت الصلوات في كلا المعسكرين، وصاح كلوكين في صف الثوار: «اصمدوا يا إخواني، مهما قدر لنا اللّه»، وسرعان ما جاء إلى الثُوار رجيفسكي على ظهر حصان، وبلغهم بمطلب شين بأن يغادروا المعسكر، ويضعوا السلاح، ويستعطفوا بطرس، ويعترفوا بذنبهم لكي يسامحهم، وهددهم بقصف المدافع، لكنهم واجهوه بالرفض:

ـ لا نخاف القصف.

ـ رأينا مدافع أقوى وأفظع.

وانتهت المفاوضات، وتكلمت المدافع، ولم توقع الصلية الأولى من ٢٥ خسائر بالقوات الخاصة، لأن الطلقات خلب (وتفيد معلومات أخرى أن المدافع أخطأت الهدف عمدًا، ومرقت القنابل من فوق الرؤوس)، ونشر الثُوار راياتهم، وأطلقوا نيران المدافع والبنادق، وجرحوا أربعة أشخاص، وفي أثر ذلك أخذت مدافع المقدم غراغه تحصد صفوف الثوار بتصويب دقيق، فاضطربوا وارتبكوا، وحاولت خمس أو ست سرايا من قواتهم أن تختبئ في المنخفض وراء الربايا القريبة، لكن تلك الربايا كانت محتلة، وقد تقدم من جهتها جنود فوجي ليفورت وبوتيرسكي، وأرغموا تلك السرايا على الانسحاب، وبعد الصلية الثالثة هجم الثُوار على الجنود، لكن الصلية التالية دمرتهم نهائيًا، فأطلق البعض سيقانهم للريح، واستسلم البعض الآخر للأسر.

وقُتل في المعركة القصيرة ما بين ١٥ أو ٢٠ من أفراد القوات الخاصة، وجرح حوالي ٤٠ شخصًا، وتم القبض على أغلبية الباقين، وزُجَ بهم في دير فوسكريسينسكي تحت الحراسة.

وأثناء التحقيق الذي جرى بأمر من بويار موسكو طلب شين أن يفرزوا من بين جميع العصاة «المندوبين» و«الفارين» إلى موسكو (في آذار من العام نفسه)، و«غيرهم من المحرَضين» أي أنشط رجال الانتفاضة وزعماءها، وبلغ عدد هؤلاء ٢٥٤ شخصًا، وبعد الاستجواب الذي وشوا فيه على بعضهم البعض، ونسوا العهد الذي قطعوه على أنفسهم، أمر شين بشنق ٥٦ من «أنشط المحرضين»، وبينهم الزعماء الرئيسيون توما وغيره، وجرى إعدامهم شنقًا في ٢٢ و ٢٨ حزيران (يونيو)، وبناء على قرار من بويار موسكو جرى بنفس الطريقة في ٢ تموز (يوليو) إعدام ٧٤ من «الفارين» إلى موسكو، وبلغ مجموع القتلى ١٣٠ شخصًا، وتجرعوا الموت بصمت راسمين شارة الصليب، وبالإضافة إلى ذلك عوقب بالجلد والنفي ١٤٠ شخصًا من أنشط أعضاء الحركة، وترك زورين وعدد آخر من أفراد القوات الخاصة في دير فوسكريسينسكي لمواصلة التحقيق، ونفى الباقون (١٩٦٥ شخصًا) إلى مختلف المدن والأديرة، لكنهم لم يصرفوا هناك وقتًا طويلًا، شهرين ونيفًا لا غير.

فعندما وصل بطرس من الخارج لم يخف استياءه البالغ من تحقيقات شين في دير فوسكريسينسكي، فقد جرى التحقيق ـ في رأيه ـ باستعجال دون أن يكشف عن جدور «الفتنة» (أي « بذور» ميلوسلافسكي التي كتب عنها إلى موسكو من الخارج)، في حين لم تتلق أغلبية المشاركين فيها سوى عقوبات خفيفة للغاية، ويعتقد بطرس أن مدبري الفتنة أُعدموا بسرعة بالغة دون أن تستحصل منهم المعلومات الضرورية المهمة، وتجلى استياء القيصر على مرأى من الناس بأشكال وحشية منفلتة.

في أثر وصول بطرس جمع ليفورت في قصره علية القوم، من وجهاء موسكو وبويارها والجنرالات والدبلوماسيين الأجانب، حوالي ٥٠٠ شخص، ووصل بطرس أيضًا، وانفجر أول حادث عندما جلس الضيوف إلى المائدة الطويلة، فقد تجادل السفير الدانمركي مع السفير البولوني بسبب المقعد، فلم يتحمل بطرس وصاح بهما:

- حمقى!

وجلس الجميع أخيرًا، وهدأ روع بطرس حسب الظاهر، وتكلم مع الدبلوماسي البولوني الذي قرعه قبل قليل:

- سمنت في فينا لكثرة الطعام، أما بولونيا المسكينة فقد أخذت مني سمنتي.

- كيف يجوز ذلك يا صاحب الجلالة؟ أنا نفسي ولدت في بولونيا وترعرعت وبقيت سمينًا بدينًا مثلما كنت.

- لقد شبعت من الطعام هنا في موسكو وليس هناك.

لم تكن كلمات القيصر هذه تخلوا من الخشونة، ناهيك عن الاستهانة باللياقة الدبلوماسية، ومع ذلك كانت أخف من كلمة «حمقى»، وسرعان ما انفجر بطرس ثانية، فهو في أشد سورات الانفعال، بدأ حديثه مع شين وسار به إلى حد الشِّجار، اتهمه باستلام الرشاوى مقابل منح مراتب الضباط، ثم هرع إلى الشارع، إلى الخفراء من جنود الحراسة، فسألهم عن عدد الجنود الذين منحوا ترقية وصاروا ضباطًا، وما أن حصل على الجواب حتى دخل القاعة راكضًا، وسيفه مشرع بيده، وانهال على المائدة بضربات السيف وبالصراخ على شين:

- هكذا ساقصم ظهر فوجك، وانزع جلدك.

أسرع ليفورت وروموداونوفسكي وزوتوف إلى القيصر ليهدئوه، فتلقى معلمه السابق زوتوف ضربة بالسَّيف على رأسه، وتلقى الأمير روموداونوفسكي ضربة على يده (فخرجت أصابعه)، وتلقى وزير التسلية والأفراح ليفورت ضربة على الظهر، وأخيرًا تمكن مينشيكوف من تخفيف حدة غلوائه.

ولم يكن سبب هذا المشهد الوحشي رشاوى شين، بل تسرعه في التحقيق، مع المتمردين، وأعلن القيصر استئناف التحقيق، وأشرف عليه بنفسه، وقال مخاطبًا غوردون الذي شارك هو الآخر في التحقيق: «سأستجوبهم بأشد منكم».

وبأمر من القيصر أُعيد إلى موسكو أكثر من ألف ثائر من القوات الخاصة، وفي ١٧ أيلول (سبتمبر) ١٦٩٨ بدأ التحقيق الفظيع الذي أدهش المعاصرين والأحفاد، وترك أبشع انطباع لدى الكثيرين من الرُوس، من حيث قساوته المرعبة التي تجاوزت كل الحدود، وبينت أولى التحقيقات التي أجريت للنشطاء من المشاركين في الحركة، ومنهم زورين وزعماؤها الآخرون، أنهم بدأوها بسبب مصائبهم وفقرهم، وأرادوا أن يطلبوا من صوفيا أن تستلم السُلطة في حالة نجاح الحركة.

كانت جريمة أفراد القوات الخاصة ومصيرها واضحين في رأي بطرس، «فهم يستحقون الموت لمجرد العصيان ومقاتلة الفوج الكبير»، أي مقاتلة قوات شين، ولم يكن القيصر في الواقع مهتما بجريرة كل منهم على انفراد، فالأهم من ذلك في تصوراته، هو إيضاح أسباب الحركة، والأهم هو اتصالات المشاركين فيها مع صوفيا الممقوتة وأشياعها، وغدت هاتان النقطتان اللتان اتضحتا من التحقيقات الأولية أساسًا للأسئلة الخمسة التي وضعها بطرس نفسه، دون ريب، وسُلمت إلى المحققين في ١٩ أيلول (سبتمبر).

وشرعت عشر لجان تحقيقية بالعمل منذ ١٩ أيلول، وترأسها أكثر الوجهاء نفوذًا، من أمثال الأمير رومودانوفسكي مدير مديرية بريوبراجينسكويه المتفنن الرئيس في الجلد والتعذيب، والبويار الأمراء تشيركاسكي ودولغوروكي وبروزوروفسكي وترويكوروف وبوريس غوليتسين وغيرهم، وتوضحت تفاصيل الانتفاضة وأهدافها بالتدريج، وأضيف إلى الأسئلة الخمسة في ٢٢ أيلول سؤال سادس بشأن « رسالة صوفيا».

وفي ٣٠ أيلول (بعد التحقيق الأول في ١٩ـ ٢٢ منه) أُعدم ٢٠١ من أفراد القوات الخاصة، وفي ١١ تشرين الأول (أكتوبر) أُعدم ١٤٤ (بدون استجواب).

وفي ١٢ و١٤و ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) أجرى التحقيق الثاني الكبير الذي عملت فيه ١٤ لجنة وليس ١٠، وبعد يوم أو يومين أعدم ١٧٦ شخصًا، جرى

الإعدام شنقًا، وبقطع الرقاب في أماكن مختلفة، في بريوبراجينسكويه والعاصمة وبواباتها ومقرات قيادة الأفواج والساحة الحمراء وقرب أسوار ديرنوفوديفيتشيه، ونُصبت مشنقة تحت نوافذ الراهبة سوزان (الأميرة صوفيا)، يتدلى منها ثلاثة من أفراد القوات الخاصة تمسك أيديهم المتجلدة بعرائض حول « الحكم القيصري»...

وتجول بطرس وحاشيته في أماكن الإعدام، وقد صور أحد هذه المشاهد الرسام سوريكوف في لوحته المعروفة «صباح إعدام الستريلتسي»، ويفيد شهود عيان أن القيصر لم يخجل من تلويث يديه، فقطع بالفأس رقاب أولئك التعساء، وأرغم البوبار أيضًا على القيام بذلك، ويقول كورب: «إن بطرس قطع رقاب خمسة من أولئك التعساء في بريوبراجينسكويه»، ويورد هذا المؤلف الرواية التالية: أثناء التحقيق سأل القيصر من أحد أفراد القوات الخاصة: ماذا كنت ستفعل لو أنك قبضت عليَ أو على ليفورت؟ فردذ الرجل على بطرس:

لماذا تسأل عن ذلك؟ يمكنك أن تتصوره أفضل مني بكثير، لو لم يلازمنا النحس والحظ المنكود، ولو استولينا على موسكو لما طرحنا مثل هذه الأسئلة، ولانتقمنا من البوبار حتى يكونوا عبرة لمن يعتبر.

ذات مرة، في مأدبة عند غوردون « تشكى القيصر بمرارة من عناد وتعنت المذنبين»، وتحدث بغضب قائلًا: إن أحدهم أبدى تشبثًا وعنادًا لدرجة جعلته يخاطبه- هو ظل الله في الأرض- بحدة وجسارة، وهو يهم بالرّقاد على النَطع:

ابتعد يا صاحب الجلالة، فأنا الذي يجب أن أرقد هنا وليس أنت.

واستمرت التحقيقات والإعدامات فيما بعد أيضًا، في ١٦٩٩-١٧٠٠، وأُعدم آخر المذنبين (وبينهم ماسلوف والأشخاص الذين وشى بهم فيما يخص «رسالة صوفيا») في ٢٧ آيار (مايو) ١٧٠٧.

وفي شباط (فبراير) ١٦٩٩ نُقلت من موسكو جثث القتلى التي ظلت حتى ذلك الحين متروكة في أماكن الإعدام، وبلغ عددها ١٠٩١ جثة،

ودُفنت على طول الطُرق على بعد ثلاثة كيلومترات ونيف عن موسكو، وأمر بطرس أن تغرز هنا أوتاد حجرية مربعة ملبسة بألواح معدنية، كتبت عليها قائمة جرائم أفراد القوات الخاصة التعساء.

وفي أيلول- تشرين الأول (سبتمبر – أكتوبر) ١٦٨٩ جرى- بالإضافة إلى أفراد القوات الخاصة- التحقيق مع الأميرتين صوفيا ومارفا والمقربين إليهما، وقد تعرض الأخيرون للتعذيب، ولكن القيصر حقق مع شقيقتيه بنفسه، وخلصهما من التعذيب، ظل بطرس يتكلم مع صوفيا ويستجوبها عدة ساعات.

فقد اصطدمت شخصيتان فذتان، لامعتان كل منهما تكره الأخرى، وانكرت صوفيا علاقتها بأفراد القوات الخاصة، أما الدعوة لاستلام السُلطة فقد قاموا بها- على حد تعبيرها- لأنهم يتذكرون وصايتها في ١٦٨٢-١٦٨٩، وجاء في بروتوكول التحقيق قولها بالحرف الواحد:

- لم أرسل إلى أفواج القوات الخاصة الرسالة التي ورد ذكرها في التحقيق، أما قول أفراد تلك القوات بأنهم جاءوا إلى موسكو لدعوتي من جديد إلى الحكومة، فإنه ليس نتيجة لرسالة منى، بل لإنني كنت في الحكومة من عام ١٦٨٢.

ولهذا نظم بطرس الذي أستجوب أخته في دير نوفوديفيتشيه مقابلة وجهًا لوجه مع اثنين من أفراد القوات الخاصة أفادوا بوجود « الرسالة»، وهما ماسلوف واغناتيف، وهنا أيضًا أبدت صوفيا صلابة وأصرت على رأيها:

- لم أسلم إلى توما تلك الرسالة بواسطة المتسولة، وأنا لا أعرفه ولا أعرف ماسلوف واغناتيف.

وأنكرت مارفا الكسيفنا كل شيء أيضًا، ولم تعترف إلا بإبلاغ صوفيا بوصول الفارين من القوات الخاصة إلى موسكو، وكانت عقوبة الأميرة صوفيا يسيرة نسبيًا، وهي الترهب باسم سوزان في دير نوفوديفيتشيه نفسه حيث بقيت حتى وافاها الأجل.

أما مصير أفراد القوات الخاصة فلم يكن يسيرا ـ كما أسلفنا ـ فإن أكثر من ألف شخص لقوا حتفهم على النطع، وعلى أعواد المشانق، ونفي الآخرون، وأمر بطرس بحل ١٦ فوجًا من القوات الخاصة في موسكو، ونفى أفرادها مع عوائلهم إلى مختلف المدن، حيث اعتبروا هناك من الحرفيين والباعة، ونعت الناس هذه العملية بـ«خراب القوات الخاصة»، وكان القيصر ينوي حل جميع أفواجها الأخرى، لكن حرب الشَّمال اندعلت آنذاك، وسرعان ما تشكلت أفواج جديدة من القوات الخاصة الموسكوبية السَابقة، وأبلى أفرادها بلاءًا حسنا في معركة بولتافا ١٧٠٩ وفي العمليات الحربية الأخرى، لكنه جرى تحويلهم تدريجيًا إلى جنود عاديين، وانتهى وجود القوات الخاصة الموسكوبية نهائيا في عام ١٧١٣، أما القوات الخاصة الأخرى فلم يجر حلها إلا في الربع الثَّاني من القرن الثَّامن عشر، أي بعد بطرس الأكبر.

كانت سنوات « التحقيق في فتنة القوات الخاصة » مشحونة بأحداث كثيرة أخرى في حياة بطرس وروسيا، ولم يقتصر الأمر على مكافحة الملتحين من المتمسكين بالأعراف القديمة، فهذا الإصلاح مس في آخر المطاف كبار فئات المجتمع الرُوسي بالدرجة الأولى، أما عامة الفلاحين وأهالي المدن فقد تخلصوا من حلق اللحى على الطريقة الغربية بدفع الضرائب، لقد أدخلت مستحدثات القيصر هذه جوانب جديدة كبيرة الأهمية في حياة الرعايا الرُوس، ودفعتهم إلى أشكال معيشية أكثر حيوية وتمدنًا، ويمكن قول الشيء ذاته عن الحفلات السَاهرة وتعليم الشُبان، بل والأكبر منهم سنًا في بعض الأحيان خارج البلاد، على مختلف العلوم ومبادئ السُلوك والآداب.

في الثَّاني عشر من شباط (فبراير) ١٦٩٩ دعا ليفورت كثيرًا من وجهاء موسكو إلى وليمة في قصره الجديد، وشارك بطرس مع الجميع في تبريكه بشكل يتسم بالهزل والمرح كما هي العادة في تلك السنين، وكان هناك كثير من النبيذ والمسليات، واستخدم القيصر المقص هنا

أيضًا، ووقعت ضحية له في هذه المرة أردان القفطانات الروسية الطويلة العريضة، وكان يقول وهو يقص الأردان:

ـ إنها تعيق الإنسان، فهو دومًا يتوقع حادثًا بسببها، فأما أن يكسر الزَجاج، أو يغط في الحساء بسبب قلة الحذر، ويمكنك أن تخيط من هذا جزمة، وعرض بطرس قطعة من الردن المقصوص على الشخص المتضرر.

وكما هو الحال مع اللحى، تخلص الأعيان بسرعة وسهولة من البدلات ذات الأذيال الطويلة، والأردان العريضة، وسرعان ما صاروا يتبخترون، شأن القيصر نفسه، بقفطانات أوربية الطراز قصيرة ومريحة، علمًا بأنها من الجوخ، وليس من أقمشة الدمقس والقطيفة والحرير الغالية الثمن، كما في السابق، ولم يكن هذا المستحدث جديدًا تمامًا، ففي عهد القيصر فيودور شقيق بطرس، جرت العادة في البلاط على ارتداء الثياب البولونية والمجرية الطراز، أما الأن فقد غدا الزيّ الجديد بمثابة البزة الرسمية العامة، فقد صدر مرسوم في ٤ كانون الثاني (يناير) ١٧٠٠ ألزم جميع النبلاء في روسيا، وجميع الحرفيين، والباعة، وأقنان البويار في موسكو، والمدن الأخرى بارتداء القفطانات المجرية، وفي ٢٠ آب (أغسطس) كرروا مرسوم كانون الثاني لأن التنفيذ تأخر، فقد ظهرت صعوبات كثيرة أمام الخياطين بسبب كثرة العمل، وعدم الاطلاع على التفصيل الجديد.

ونظرًا لأن الروس، كما يبدو، تعودوا على عدم التنفيذ إلا بعد تذكير للمرة الثالثة، تكرر في عام ١٧٠١ من جديد المرسوم الخاص بالزيّ الجديد، وأشار المرسوم بمزيد من التفصيل إلى ما يتعين أن يرتديه الناس: «بدلات سكسونية وفرنسية، وتحتها قمصان وسراويل، والجزمات والأحذية والقبعات ألمانية الطراز»، وفُرضت غرامة على من يخرق المرسوم هي روبلان للفارس الراكب، و٤٠ كوبيا للراجل.

وكما هو شأن حلق اللحى، لم ينفذ مرسوم الثِّياب بالسرعة التي أرادها بطرس، ومع ذلك تعود المجتمع الروسي بالتدريج على حلاقة الذقن والزيّ الجديد.

وتتسم بأهمية أكبر المستحدثات الأخرى التي طبقت في عامي ١٦٩٩-١٧٠٠، فإن البدء ببناء السُفن، والملاحة البحرية والمدفعية، وإنشاء القلاع طرح بحدة ضرورة وجود المهندسين والفنيين والأسطوات المطلعين على الرياضيات، والذين يجيدون قراءة الخرائط، واستخدام الأدوات والأجهزة المعقدة، واستدعت الضرورة وجود مستشفيات في أفواج الجيش، أي وجود ذوي المهن الطبية ودراسة الطب، ودعت الحاجة إلى التفكير في الكثير من الأمور الأخرى المستعجلة التي لا تقبل التأجيل، بديهي أن الرُوس تعاقدوا مع أخصائيين أجانب مقابل أموال كبيرة، لكن بطرس الذي رأى في الخارج أكاديميات العلوم والجامعات والمراصد والمدارس وكثيرًا غيرها، قد فهم تمامًا أن روسيا بحاجة إلى مثل هذه المؤسسات والدوائر، وعندما كان في بريطانيا كلف ف. بروس بأن يدرس نظام التعليم الإنجليزي ويقدم تقريرًا عنه.

وحال ما وصل إلى روسيا اتخذ إجراءات عملية، ففي ٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٦٩٩ زار البطريرك أدريان وكان مريضًا، وتشكى من جهل رعاة الكنائس، وقال القيصر: ينبغي إرسال زهاء عشرة أشخاص إلى مدارس كييف، الأحوال سيئة في الأكاديمية السَلافية اليونانية اللاتينية التي أسسها الأخوان ليخود من اليونانيين في عام ١٦٨٥، فالتلاميذ (وعددهم ١٥٠) يعانون من الفقر، والمبنى مهدم، والمعلمون لا يتحلون بمستوى ثقافي، و يجب تأسيس مدرسة جديدة، يُدرس فيها بالطبع الإنجيل بوصفه نور العيون، و«تعاليم الخالق»، هذا بالدرجة الأولى، ولكن يجب ألا يقتصر التعليم على ذلك، فالتلاميذ ينبغي أن يحصلوا على معارف في الشؤون العسكرية والهندسة والطب، فالرُوس- على حد قول القيصر- تواقون إلى ذلك:

- الكثيرون يرغبون في تعليم أبنائهم العلوم الحرة.

وكان يُقصد « بالعلوم الحرة» آنذاك في أوربا الغربية وفي روسيا علوم الكلام (قواعد اللغة والديالكتيك والخطابة)، والرياضيات (الحساب

والهندسة والفلك)، والموسيقى، وحاول بطرس أن يقنع البطريرك رئيس الكنيسة الأرثوذكسية الرُوسية، بضرورة تلك العلوم للرعايا الرُوس الذين « سيتعلمون كل الفضائل في مدارسنا إذا توفر التعليم الماهر الواسع الاطلاع»، وأكد القيصر على الفكرة القائلة بأن الإيمان بدون عمل لا جدوى منه، كذلك العمل بدون إيمان.

كان البطريرك الضعيف الذي سرعان ما قضى نحبه من المحافظين الغيارى على الماضي في كل شيء، وقد استمع بارتياب، في أغلب الظن، إلى القيصر الشَّاب الجسور، فالأفكار التي أعرب عنها تقارب الزندقة في مفاهيم ذاك الزمان، فاللوغارثمات التي انتقلت من زمان إلى أوربا الغربية من آسيا الوسطى (عن الخوارزمي وغيره)، كانت تعتبر في روسيا «كتابًا أسودًا» يغوي الإنسان في التواطؤ مع الشيطان، وكانوا يقولون آنذاك «كل من يحب الهندسة مكروه عند اللّه».

وكان بطرس يدرك طبعًا عواقب ما أقدم عليه، وقد أقدم على هذا العمل شأن الأعمال الأخرى، بجرأة وحزم، كانت روسيا بحاجة إلى مدارس ذات برنامج تعليمي واسع، وكانت بحاجة إلى جامعة وأكاديمية، وقد تصرف بطرس على هواه، رغم محاولته لإقناع البطريرك المريض، وتمسكه بما يشبه الأصول الدبلوماسية، وإن بصورة شكلية تظاهرية، فقبل هذا الحديث، عندما كان بطرس في بريطانيا دعا للسفر إلى روسيا البروفسور هنري فاروارسن، ووصل البروفسور المذكور مع اثنين من رفاقه إلى موسكو قبيل حديث بطرس مع البطريرك أدريان، وفي عام ١٧٠١ بدأ هؤلاء الأساتذة بتدريس الرياضيات في مدرسة الملاحة، وبعدها ظهرت مدارس أخرى للرياضيات.

في عام ١٦٩٩ جلبوا إلى موسكو مطبعة جديدة كان مقررًا أن تطبع فيها، ليس بالأحرف السلافية الكنسية، بل بالأحرف المدنية، كتب ذات مضمون علماني في الهندسة والمدفعية والميكانيكا، وكذلك التاريخ والتقاويم، هذا ما ورد عن المطبعة المذكورة في كتاب «تاريخ الحرب

السويدية» الذي وضع في عشرينات القرن الثامن عشر، وشارك في تأليفه بطرس الأكبر.

صحيح أن أولى الكتب التي صدرت باللغة الروسية في ١٦٩٩ـ ١٧٠١ ، كانت قد طبعت في امستردام، وكانت مكرسة لمواضيع علمانية في التَّاريخ، والحساب، والفلك، والملاحة، وعلم اللغة، والأدب، وكانت تلك بداية الانعطاف من المطبوعات الكنسية الصرف إلى المعرفة العلمية، وبعد ذلك بدأت الطباعة في موسكو.

وكانت الخطوة المهمة التالية هي استخدام التقويم الجديد، ففي ١٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٦٩٩، أُعلن مرسوم صادر عن بطرس الأكبر أن التقويم في روسيا من الآن فصاعدًا يبدأ ـ كما في سائر بلدان أوربا ـ ليس من «الخليقة»، بل من ميلاد عيسى المسيح، وفي اليوم التالي صدر مرسوم آخر ببدء السنة الجديدة ليس في ١ أيلول (سبتمبر) كما هي العادة حتى ذلك الحين، بل من ١ كانون الثاني (يناير)، وكيلا يشعر شعب روسيا الأرثوذكسي بالريبة والقلق، أخبروه بأن هذا النظام لحساب الزمن موجود من زمان، ليس فقط في العديد من بلدان أوربا الغربية، بل وكذلك عند الشعوب الصقلبية (السلافية)ـ الصرب والبلغار، وكذلك الفولوخ (الرومانيين) والمولدافيين والدالماتينيين، بل وحتى عند الإغريق (اليونانيين) التي تبنت روسيا في حينه الديانة المسيحية على أيديهم، وأُرسلت وثيقة رسمية إلى مختلف أنحاء البلاد بالإضافة إلى المرسوم، سمحت باستخدام التقويمين في الوثائق، إلا أن التقويم الجديد سرى بسرعة في تحرير الوثائق الرسمية وفي المراسلات الشخصية.

ووفقًا لأوامر القيصر أُقيمت في الأول من كانون الثاني (يناير) ١٧٠٠، في الكنائس صلوات مهيبة بمناسبة العام الجديد، واصطفت في السَّاحة الحمراء أفواج الجنود الذين أطلقوا نيران المدافع والبنادق، كما احتفل بهذه المناسبة بالألعاب النارية، والتزيينات بالأنوار والأقواس المزركشة على أبواب منازل الوجهاء، وزُينت المنازل نفسها بالخُضرة، واستمرت الاحتفالات ستة أيام.

ومن ذلك الحين، سمح لجميع الراغبين من الرَعايا بالسفر إلى الخارج لغرض الدراسة، وكانت هذه الرحلات ممنوعة في السابق، والأكثر من ذلك أن القيصر ـ كما رأينا ـ بذل قصارى جهده لإرسال الشُبان الرُوس إلى أوربا الغربية طلبًا للعلم والمعرفة، وأرغمهم على الرحيل.

وبموجب مرسوم ١٠ آذار (مارس) ١٦٩٩ استحدث ـ على غرار أوربا ـ وسام القديس أندري بيرفوزفاني، وأدهش بطرس أبناء جلدته عندما أخذ منذ تلك الآونة ـ خلافا لأسلافه من القياصرة الرُوس ـ يوقع بنفسه الوثائق ذات الطابع الدولي، ويصادق عليها، وصار يجري بنفسه، في جلسات مغلقة، مباحثات مع المندوبين الأجانب في موسكو.

وفي كانون الثاني (يناير) من عام ١٦٩٩، أعلن بطرس مرسوم إصلاح المدن، فتشكلت هيئات الإدارة الذاتية للمدن (المجالس البلدية)، مثل هيئة راتوشا في موسكو ومجالس الزيمستفو في المدن الأخرى، وفي عهد القيصر الكسي ميخائيلوفيتش ـ والد بطرس ـ حاول الدبلوماسي البارز أوردين ناشوكين المقرب إليه أن يجري مثل هذا الإصلاح في بسكوف، التي كان متصرفًا فيها بعض الوقت، وكان هدف هذا الإصلاح تأسيس دائرة تحمي التُجار وتصونهم من تعسف المتصرفين، وبدأ المتصرف بتطبيق هذا الإصلاح الذي استقبله أهالي بسكوف بارتياح، وكان المفروض أن تنتشر هذه التجربة الأولى في سائر مدن روسيا، إلا أن دسائس البويار الذين يمقتون محبوب القيصر، وعدم رغبة المتصرفين أنفسهم الذين أثروا في مدن روسيا، ومخاوف السُلطات من مبادرات أهالي المدن ومشاغباتهم، كل ذلك قاد الإصلاح إلى الفشل.

أما الآن، بعد ثلاثة عقود، فقد طبق بطرس وأعوانه بحزم الأنظمة الجديدة غير المعتادة بالنسبة للحرفيين والباعة الرُوس، ومن جديد أشار مرسوم بطرس ـ مثلما في عهد أبيه وأوردين ناشوكين ـ إلى هدف الإصلاح، وهو حماية التُجار من الكثير من مماطلات الدوائر ومن الإفلاس، صحيح أن السُلطات عندما منحت المدن إدارة ذاتية، وخلصتها من رقابة المتصرفين،

طالبت الحرفيين والباعة بتسديد ضرائب مضاعفة، وكان ذلك هو ثمن الإصلاح، إلا أن الحرفيين والباعة رفضوا دفع الثمن، ولم يوافقوا على الشرط الوارد في المرسوم، وتخلت الحكومة عن فكرة منح الإدارة الذاتية فقط للمدن التي تدفع ضرائب مضاعفة، وظلت الضرائب على حالها، وشمل الإصلاح كل المدن.

وكلفت الراتوشا ومديريات الزيمستفو بجباية الرسوم الجمركية، وعائدات الحانات، ومن تلك الفترة لم يعد ذلك من وظائف المتصرفين، بل من واجب المنتخبين من التُجار، وبالإضافة إلى ذلك كانت الحكومة تأمل في الحصول على منفعة أخرى، هي إنعاش الحرف والصناعة والتجارة.

ومن ذلك الحين بدأت أولى التحويلات الإدارية، كانت آلة الدولة التي ورثها بطرس ثقيلة خرقاء، تعاني من التشويش في وظائف الدوائر، وكان إصلاحها الجذري ينتظر، ففي تلك الفترة جرت التجارب الجزئية الأولى في هذا المجال، وبالإضافة إلى إصلاح المدن الذي استحدث دوائر جديدة، اهتم بطرس وأعوانه بمعالجة الدوائر القديمة.

كانت مجالس الزيمستفو العامة – هيئات ممثلي مراتب المجتمع التي اتسم نشاطها بطابع تشريعي- في طي الماضي من زمان، وظل مجلس دوما البويار بمثابة الهيئة الاستشارية التشريعية والقضائية العليا، ويتكون مجلس الدوما من كبار البويار والنبلاء، وفي بداية تسعينات القرن السَابع عشر كان عددهم ١٨٢، وفي نهاية القرن المذكور كان العدد ١١٢ شخصًا، وقد توفي أعضاء الدوما الطاعنون في السن، ولم يُعين آخرون تقريبًا بدلًا عنهم، وأخذ مجلس الدوما ينقرض بصورة طبيعية، وفي الأول من كانون الثاني (يناير) ١٧٠٢ لم يبق فيه سوى ٨٦ عضوا، ففي غضون عقد واحد تقلص عدد أعضاء مجلس الدوما إلى أقل من النصف، ثم إنهم لم يكونوا جميعًا يحضرون جلسات المجلس، فلا يحضرها عادة سوى ٣٠-٤٠ شخصًا، بعضهم يتجول في البلاد بمهمات معينة، وبعضهم لا يتلقى دعوة لحضور الجلسات، والأهم هو أن المجلس يبت في مسائل ثانوية (مثل تسجيل

الفلاحين ضمن التُجار، وجباية الضرائب أثناء عقد الصفقات، وما إلى ذلك)، فالقضايا المهمة ينظر ويبت فيها القيصر، وتذيعها المراسيم الصادرة باسمه، وقد ظهرت في مجلس الدوما نفسه مستحدثات لم تكن موجودة قبل ذلك، فبأمر من القيصر ترأس جلسات الدوما الأمير رومودانوفسكي الذي لم يكن عضوًا رسميا فيه.

والدرجة الثانية في إدارة شؤون الدولة هي البريكاز (المديرية)، وهي بمثابة وزارة القرن السَابع عشر، كان نظام المديريات معقدًا ومتشعبًا للغاية، ففي الأول من أيلول (سبتمبر) ١٦٩٩، تجاوز عددها الأربعين: تشرف مديرية العلاقات الخارجية على الشؤون الخارجية والدبلوماسية، وتشرف مديرية الخدمة على التعيينات، وعلى متطوعة النبلاء، كما تؤمن مديرية الضياع قطع الأراضي للبويار والنبلاء، وتدير مديرية الستريلتسي شؤون القوات الخاصة، وتشرف مديرية الخيالة على الخيالة، وتؤمن مديرية القصر الكبير مستلزمات معيشة أسرة القيصر، وهلمجرا، لكن المشكلة هي عدم تحديد وظائف تلك المديريات بشكل دقيق، فإن مديرية العلاقات الخارجية مثلاً لم تقتصر على معالجة قضايا السياسة الخارجية (إجراء المفاوضات وتوقيع الوثائق الدبلوماسية وسواها)، بل كانت تشرف على المدن الحدودية من كل النواحي، بما فيها القضائية والمالية، وكانت جباية الضرائب والعائدات المباشرة وغير المباشرة من صلاحية عدة مديريات، وإلى جانب المديريات العامة بالنسبة لروسيا بأجمعها، كانت هناك مديريات تشرف على مناطق معينة، مثل مديرية سيبيريا، ومديرية قصر قازان (منطقة الفولغا)، ومديرية روسيا الصغرى (أوكرانيا الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الدنيبر، والتي انضمت إلى روسيا منذ عام ١٦٥٤)، وهلم جرا.

وفي عهد الكسي ميخائيلوفيتش جرت محاولات لتنظيم سير هذه الآلة الضخمة، فقد تشكلت مديرية التحريات التي تسلطت على كل المديريات الأخرى، وكلف شخص واحد بإدارة مجموعة من المديريات، وجرت تغييرات مماثلة في عهد أبنائه.

وفي عهد بطرس، في أواخر القرن السَابع عشر، كانت هناك أيضا مديريات موحدة من حيث تقارب موقعها وتجانس مهماتها وإلخ، فإن مجموعة المديريات التي تترأسها مديرية العلاقات الخارجية تضم مثلًا، مديرية روسيا الكبرى، ومديريات روسيا الصغرى، وإمارات سمولينسك، ونوفغورود، وغاليتش، وفلاديمير، واوستيوغ، وكانت هناك مجموعة من المديريات لشؤون البلاط، مديرية الحجريات (البناء)، ومديرية الاسطبلات (الخيل والاسطبلات والعربات والزحافات، أي وسائط النقل الخاصة بالبلاط)، وفي أواخر القرن السَابع عشر كانت مديريات القوات الأوربية الطراز، والخيالة الثقيلة، والقوات الخاصة خاضعة لشخص واحد هو الأمير اوروسوف، ثم البويار شين، وبالإضافة إلى مجموعة المديريات الخاضعة لمديرية العلاقات الخارجية، كان غولوفين يدير مجموعة أخرى هي مديريات الأسلحة ومصوغات الذهب والفضة (وهي من مديريات البلاط التي تشرف على صنع السلاح والحلي الذهبية والفضية «لاستعمال القياصرة»)، ثم مديرية البريد، وأخيرًا مديرية الشؤون البحرية الحربية التي استحدثت في ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٦٩٨ لإدارة شؤون أخصائيي الأسطول الأجانب القادمين من الخارج.

وأُغلقت مديرية الزيمستفو، التي تشرف على البوليس في موسكو، وأحيلت وظائفها إلى مديرية القوات الخاصة التي فقدت هذا القسم من صلاحياتها بعد حل أفواج القوات الخاصة الموسكوبية، واحتفظت بوظائفها الأخرى (مثل إطفاء الحريق)، وأضيفت إليها المهمات البوليسية العامة، ولذا تبدّل اسمها إلى مديرية شؤون الزيمستفو.

واندمجت غرفتا المصوغات الذهبية والفضية، وكذلك مديرية الماسورات الخاصة مع غرفة الأسلحه (مرسوم ١٩كانون الثاني-يناير١٧٠٠)، وفي شباط (فبراير) من العام ذاته جرى توحيد مديريتى الخيالة الثقلية، والقوات الأوربية الطراز، وترأس المديرية الجديدة الأمير دولغوروكى الذى منح رتبة «المفوض الأقدم»، ولذا سميت في المكاتبات«بالمفوضيه»، وفيما

بعد بمديرية الشؤون الحربية، وفى تلك الفترة أُغلقت مديرية الحجريات، وظهرت بدلًا منها مصلحة «المؤن العامة» بإشراف بازيكوف، (وكانت تمارس جمع احتياطى الحبوب في الدولة كلها، وتوزيعها على القوات المسلحة)، واعتبارًا من عام ١٧١٧ صارت تسمى«بمديرية المؤونة».

وفى ١٩ أيار (مايو) عهد بمديرية المدافع إلى «الجنرال المدفعى» ولي عهد دولة أميريتيا (جورجيا) ألكسندر أرتشيلوفيتش، (وكان أثناء تواجده في الخارج مع«البعثة الكبرى» قد درس المدفعيه جيدًا في لاهاى)، ومن بداية ١٧٠١ صارت دائرته تسمى «بمديرية المدفعية»(وأحيانًا باسمها القديم: مديرية المدافع).

وفى ٢٤ آب (أغسطس)١٧٠٠ تأسست مديرية جديدة، هي مديرية التنقيب المعدنى لتنظيم أعمال البحث عن فلزات «الذهب و الفضة وغيرها».

واختفت تلقائيًا مديريات روسيا الكبرى (التي كانت تعين متصرفى المدن في روسيا)، وفلاديمر وكوستروما.

وكانت كل هذه التغيرات الإدارية نتيجة مباشرة لمبادرة بطرس الأكبر، فهو من جهة قد قام بما قام به أسلافه، وحاول أن يركز ويعمم ويبسط الإدارة ، ومن جهة أخرى استحدث دوائر جديدة للإدارة العسكرية بالدرجة الأولى، وهذا شئ مفهوم، فقد اندلعت حرب الشمال من أجل الحصول على منفذ إلى بحر البلطيق، وتقلص العدد الإجمالى للمديريات من ٤٤ إلى ٣٤ مديرية.

ولم ينس بطرس الكنيسة، فكما هو شأن أسلافه، ابتداء من إيفان الثَّالث في نهاية القرن الخامس عشر، وإيفان الرَهيب في منتصف القرن التالى، وكما هو شأن والد بطرس، سعى القيصر الشَّاب إلى إضعاف نفوذها وقطع دابر ادعاءاتها في الأولوية بالنسبة للسُلطة الدنيوية, والى زعزعة مواقعها الاقتصادية.

وكان بطرس قد أعرب في الماضى أيضًا عن موقفه السلبى من الطفيليين الأثرياء البدناء، أي الرهبان الزوس، وعندما كانت أمه على قيد الحياة تمالك نفسه، لكنه لم يكن يحترم رجال الدين دومًا، وقد اختلط بالأجانب، ومارس أعمالًا لا تليق بالقيصر آنذاك (الألعاب العسكرية في البر والماء، ومشاركته الشخصية النشيطة فيها، وعدم حضور الكثير من المراسيم الرسمية)، وبعد وفاة أمه ناتاليا اكتسب سلوكه هذا في أنظار رجال الدِّين طابعًا أهوج أشد من السَّابق، استخدم الأجانب، والسفر إلى الخارج، وتدخين التبغ وحلق اللحى، وارتداء الثياب الأجنبية، واشتاط الكثيرون غضبًا، وخصوصًا رجال الدين.

إلا أن بطرس سار هنا إلى أبعد من ذلك، فالحملات الحربية تتطلب نفقات جديدة متزايدة، ولذا وجه أنظاره الثَّاقبة إلى الكنيسة بعد دخول آزوف، وأخذ يحاسبها بالواردات والنفقات، ويرغمها على بناء السُفن بأموالها، ويمنع إنشاء أجنحة جديدة في الأديرة، ودفع الرواتب إلى كبار القساوسة.

فى عام ١٧٠٠ توفى البطريرك أدريان، ولم يعين البطريرك الذى انتظره المؤمنون، وبدلًا عنه استحدث بطرس منصبًا جديدًا هو سادن كرسى البطريركيه الذى يؤدى فقط وظائف راعي الكنيسه، في حين تنتقل أموال الكنيسة إلى مديرية الأديرة برئاسة موسين بوشكيش، وهو رجل مدني، وتَرد عائدات هذه المديرية إلى خزينة الدُولة (أكثر من مليون روبل خلال السنوات١٧٠١-١٧١٠)، وقد أجرى بطرس في الواقع انتزاع ملكية الكنيسة جزئيًا، وواصل محاولات أسلافه ومهد لانتزاع ملكيتها النهائي الذى أعلنته يكاترينا الثَّانية في عام ١٧٦٤.

وبعد استحداث مجلس الراتوشا، ومديريات الزيمستفو، قيد بطرس وظائف متصرفي المدن، وقيد بالتالي (وفقًا للفكرة التي استند اليها المرسوم على الاقل) تعسفهم ورشاواهم، من الباعة والحرفيين في المدن، ومن فلاحي الدولة (من غير الأقنان) في الريف.

بديهي أن التبدلات الإدارية لم تلغ تداخل الوظائف وضخامة الجهاز، لكن بطرس وحكومته قاما بخطوة جديدة إلى الأمام، وواصلا وطورا ما تحقق من قبل، وأرسيا أساس التغيير الأكثر حزمًا لنظام إدارة الدولة المركزية والمحلية، وهو التغيير الذى أجرياه فيما بعد، إبان حرب الشمال.

وفى الميدان المالي كان إصلاح المدن الإجراء الأهم، فعائدات الضرائب الأساسية صارت تتوارد على الراتوشا، وليس على مديرية الخزينة الكبرى القديمة، وبلغت واردات الراتوشا في عام ١٧٠١، ٢٦٨, ١ مليون روبل، وواردات المديرية ٧,٧١٧ ألف روبل، وساعد اجراءان آخران على بلوغ نفس هذا الهدف - أي زيادة واردات الخزينة- وهما استحداث رسوم على الأوراق المدموغة (صدر مرسوم بهذا الخصوص في عام ١٦٩٩)، وتنظيم جباية رسوم الأختام التي تستحصل لقاء المصادقة على جميع الوثائق بختم جديد خاص هو «ختم النسر» (ختم عليه صورة النسر يحمله الموظف بشريط على ياقته)، وكان الختم واحدًا للجميع، ما عدا مديرية العلاقات الخارجية والراتوشا اللتين لهما ختمان خاصان (مرسوم ٥ كانون الأول- ديسمبر من العام ذاته)، ولا تعتبر الوثائق المكتوبة على ورق غير مدموغ وغير المصدقة بالختم سارية المفعول.

وقد استحدث بطرس الورق المدموغ بناء على توصية من الكسي كورباتوف، ذلك الرجل الداهية كبير خدم قصر الوجيه شريميتيف، فقد كان مع سيده في الخارج، ولاحظ فيما لاحظ هناك، أن الوثائق التجارية وغيرها تكتب في المؤسسات على ورق خاص مدموغ بدمغة معينة، ويباع من قبل الخزينة فقط، وعندما عاد كورباتوف الفطين إلى روسيا، قدم مشروعًا باستحداث مثل هذا الورق في روسيا، ولم يذيل كورباتوف المشروع بتوقيعه تحوطا لأي طارئ، وعندما علم بأن القيصر استحسن اقتراحه أعلن عن اسمه، واستحدث ورق الدمغة، ومن ذلك الحين ارتفع نجم كبير الخدم، فقد عينه بطرس مفتشًا إداريًا أقدم في الراتوشا، ومنحه ضيعة، وبهذه الصورة صار من النبلاء، بعد أن هيأ الإمكانية لزيادة عائدات خزينة

الدولة، وأرسى البداية لكوكبة موظفي بطرس »المربحين» السيئ الصيت، وهم الموظفون الذين كلفوا بابتداع ضرائب ورسوم جديدة لملأ برميل الخزينة، الذي لا قعر له، وقد بذل هؤلاء الموظفون فيما بعد، إبان حرب الشمال، قصارى جهدهم مقتدين بالمفتش الأقدم، ومندفعين بتشجيع بطرس، ومتعرضين لسخط رعاياه.

وأعلن مرسوم بطرس في ١١ آذار (مارس) ١٧٠٠ عن إصلاح النقود، وبموجب هذا الإصلاح أخذوا يسُكون إلى جانب القطع النقدية الفضية قطعًا نحاسية من فئات صغيرة متنوعة: نصف كوبيك وربع كوبيك وثمن كوبيك، وكان التداول قبل ذلك بأمس الحاجة إلى الفراطة، ولذا كان الناس يكسرون الكوبيك الفضي إلى جزئين أو ثلاثة، وظهرت في بعض الأماكن بدائل اعتباطية مثل «نصف الكوبيك» الجلدي وغيره، ونظرًا لفشل الإصلاح النقدي النحاسي في ١٦٥٤-١٦٦١، حيث غص السوق بكميات هائلة من النقود النحاسية التي انخفضت قيمتها تدريجيًا ١٠-١٥ مرة بالمقارنة مع النقود الفضية صاروا يسكُون الآن الكمية اللازمة فقط من النقود النحاسية الصغيرة الفئات والجيدة النوعية.

وقام بطرس بمحاولة في ميدان التشريع القانوني، ففي ١٩ شباط (فبراير) وقع مرسومًا حول مجموعة القوانين الجديدة، فقد وضعت مجاميع القوانين في روسيا قبله عدة مرات، فبالإضافة إلى «الحقيقة الرُوسية» بصيغها المختلفة (من آثار القرنين الحادي عشر والثَّاني عشر، وبداية القرن الثَّالث عشر)، ومجاميع القوانين المحلية في عهد التجزئة الإقطاعية في روسيا (تشريعات محاكم بسكوف، وتشريعات محاكم دفينا وغيرها)، وضعت في الدولة الرُوسية المركزية اعتبارًا من أواخر القرن الخامس عشر عدة مجاميع للقوانين، مثل قوانين المحاكمات لعام ١٤٩٧ ولعام ١٥٥٠، وفي عام ١٦٤٩ صدرت مجموعة قوانين مجمع الزيمستفو (الذي شارك فيه مجلس وكبار رجال الدِّين، وممثلو النبلاء، والحرفيين، والباعة، والفلاحين الأحرار)، وكان قد مر نصف قرن على قوانين القيصر الكسي

ميخائيلوفيتش، وتجمع الكثير من التشريعات الجديدة، وكانت الفوضى تسود التشريعات القانونية مثلما تسود النظام الإداري، فالكثير من مراسيم القياصرة وأحكام مجلس الدوما تتعارض مع مواد مجموعة القوانين لعام ١٦٤٩، أما القوانين الأخرى فلم يكن الحكام والإداريون يعرفونها بشكل مقبول، وفيما بعد، في النصف الأول من القرن التَّاسع عشر، شكلت هذه المواد الجديدة ثلاثة مجلدات ضخمة هي «مجموعة القوانين الكاملة»، وقبل ذلك لم تكن هذه القوانين مصنَّفة.

وكان مرسوم بطرس يستهدف تصحيح هذا الوضع وتصنيف تلك القوانين، وكان على اللجنة القانونية الخاصة التي تشكلت بموجب المرسوم أن تدرس هذه المواد الجديدة، وتقارنها مع قوانين مجمع الزيمستفو لعام ١٦٤٩، وتضع القوانين الجديدة.

وضمت هذه اللجنة القانونية اثنى عشر شخصًا من مجلس الدومًا، وكان لبعضهم خبرة في صياغة القوانين، لأنهم كانوا في حينه من أعضاء لجنة العقوبات التي عملت في مجلس الدوما في الفترة ١٦٨١ـ١٦٩٤، وبالإضافة إلى ذلك شارك في أعمال اللجنة موظفون من خارج الدوما وعددهم ٥٠ شخصًا، وكذلك ثلاثة من نبلاء موسكو، ومارس وظيفة الكتبة ستة من الموظفين الأقدم، وعدد من الموظفين الصغار من مختلف المديريات.

وظلت اللجنة تعقد جلساتها من ٢٧ شباط (فبراير) ١٧٠٠ حتى ١٤ تشرين الثَّاني (نوفمبر) ١٧٠٣، وكانت اجتماعاتها غير كاملة النصاب، ويستمع أعضاؤها إلى فهرست قوانين مجمع الزيمستفو، ثم نصوص فصولها وموادها طبقًا للفهرست، ثم نصوص «المواد الجديدة» في المسائل المتشابهة، وعقدت اللجنة عمومًا ١٩٣ جلسة، وكانت ثمرة عملها هي وضع مشروع القوانين الجديدة، لكن المشروع لم يحظ بالمصادقة أبدًا لسبب مجهول؛ ربما لم يعجب بطرس بالعمل الذي قامت به اللجنة، وربما أعاقته حرب الشمال، فالقيصر في تلك الفترة كان مشغول البال بأمور عاجلة أكثر أهمية.

وفي بداية القرن الثّامن عشر أجرى بطرس إصلاحات في ميادين التعليم، والعلوم، والثقافة والحياة المعيشية، وكانت لتلك الإصلاحات أهمية بالغة حيث دشنت عهدًا جديدًا، وظهرت في روسيا جرائد، ومسرح، ومدارس، وثانويات مدنية وأكاديمية فرعية (بحرية)، وأخرى عامة (أكاديمية العلوم التي اتخذ مجلس السينات بحضور بطرس قرارًا بافتتاحها في ٢٢ كانون الثّاني (يناير) ١٧٢٤، وأقر مشروع تأسيسها الذي وضع بتكليف من بطرس نفسه، وافتتحت الأكاديمية في آب (أغسطس) ١٧٢٥ بعد وفاته)، وحفلات للرقص والحديث، ودور جديدة، وثياب عصرية، وصدر عدد كبير من الكتب، ابتداء من الكتب الدراسية في مختلف ميادين المعرفة، وانتهاء بالبحوث في التاريخ والحقوق والتحصينات والمدفيعة والنتاجات الأدبية، وظهر في روسيا كثير من الإخصائيين المثقفين، ليس فقط في الشؤون العسكرية والبحرية، بل وفي ميادين التعدين وبناء السُفن والجيولوجيا وعلم المعادن والجغرافية والتاريخ وإدارة الدولة والحقوق، ووسعت البعثات التي نظمها وأعدها بطرس وأعوانه إلى مختلف إرجاء البلد الشاسع المعارف الجغرافية، وأدت إلى تطور علم الخرائط، وشملت تلك البعثات مناطق الأورال وسيبيريا والشرق الأقصى، بما فيه كامتشاتكا، وبحر الخزر وبحر آرال، ومنطقتي آزوف وبوموريا.

واتسمت التحويلات الأخرى بمثل هذه الأهمية البالغة، فبمبادرة من بطرس جرى تدشين عشرات المؤسسات الصناعية، مثل مانوفاتورات صهر الحديد والزهر والنحاس وغيرها، وتطورت الصناعة في الأورال بشكل عاصف، وحتى نهاية عهد بطرس الأكبر كانت هناك ٢٠٠ مؤسسة (بينما كان عددها في أواخر القرن السَابع عشر حوالي الثلاثين)، وكانت تلك طفرة في الإنتاج الصناعي، وتلقى دافعًا شديدًا تطور التجارة الداخلية والخارجية والإنتاج الزراعي وحياة المدن.

وأجرى بطرس تغييرًا جذريًا في كيان إدارة الدولة جمعاء، وبدلًا من مجلس دوما البويار القديم جاء مجلس السينات (الشيوخ) في ١٧١١، وهو

الهيئة الحكومية العليا التي عهد إليها القيصر مراقبة وتفتيش سائر دوائر الدولة، وكان هذا المجلس يتمتع بالسُلطة القضائية والإدارية، وأحيانًا التشريعية، وكان يراقب نشاط مجلس الشيوخ نفسه مفتش عام صار فيما بعد يسمى بالمدعي العام.

وبدلًا من المديريات القديمة، وكان عددها بضع عشرات لا تحديد للوظائف فيما بينها، استحدثت الهيئات التي هي باكورة الوزارات، وعددها ١١، ووظائفها محددة تمامًا: هيئات الشؤون الخارجية، والعسكرية، والبحرية، والعائدات، والنفقات، والتفتيش (مراقبة جباية وصرف أموال الخزينة)، والقضاء، والتعدين والصناعة الخفيفة، والتجارة، والعقارية.

وأضيف إليها السيندوس- الهيئة الدينية العليا التي حلت محل البطريرك الذي ألغى بطرس رتبته ومنصبه- والهيئة الرئيسية لإدارة المدن.

وبالإضافة إلى تقسيم البلاد إلى أقضية (بلغ عددها العشرات) قسمت كذلك إلى ألوية (ثمانية في البداية ثم أحد عشر لواء).

ومنح الإصلاح العسكري (استحداث التجنيد الإجباري، وتدريب الجنود، وهلم جرا.) روسيا جيشًا نظاميًا ممتازًا، وأنشأ بطرس الأكبر في الوقت ذاته أسطولًا قويًا، وافتتح المدارس العسكرية، ونظم تعليم الجنود والضباط وتزويد الجيش والأسطول بكل ما يحتاجانه، وعاد ذلك كله بثمار رائعة في سنوات حرب الشمال.